"يقظة العرب" كتاب قديم جديد

بقلم عبد اللطيف شراره

كان هذا الكتاب (*) الذي وضعه مؤلفه العربي ـ وهو من دير القمر ـ بالانكليزية ، باكورة الحديث عن القومية العربية في الاوساط الاوروبية ، وحتى في بعض الاقطار العربية نفسها ، ولذلك حظي من بعد بشهرة ونجاح لم يحظ بهما غيره من المؤلفات التي تناولت الموضوع نفسه ، واصبح « المرجع الفصل » فيه ، كما يصف الدكتور نبيه فارس في المقدمة التي كتبها لهذه الترجمة العربية ، وكان بالفعل كما ذكر في عنوانه « تاريخ حركة العرب القومية » الحديثة .

غير ان كلمة « الحديثة » اضفتها من عندي ، فالكتاب لا يعرض الا للحركة العربية ذات المحتوى القومي التي قامت في ابان القرن الماضي ـ وكانت رد فعل للقومية الطورانية التي نادى بها الاتراك ـ مع ان الحركات ذات المحتوى القومي رافقت التاريخ العربي من اقدم العصور الى اليوم، فوقعة ذي قار الشهيرة قامت ولها محتوى قومي ، والنزاع بين العرب والموالي في الدولة الاموية كان ذا صبغة قومية ، والحركات الشعوبية عهد العباسيين كانت رد فعل للسيادة العربية .

ومعنى ذلك كله أن « قصة الحركة القومية للعرب » لم تبدأ في بلاد الشام سنة ١٨٤٧ كما قرر المؤلف في فصله التمهيدي ، ولو اضاف الى هذه الجملة كلمة « الحديثة » لما عدا الصواب . صحيح ان تلك الحركات لا تتسم بالطابع العصري المعروف للقومية ، ولكنها كانت منسجمة مع الروح ، مع الجو الفكري العام ، ان في الجاهلية ، وان في العصور التي توالت من بعدها . وجذور اليقظة العربية تمتد ـ فيما نحسب ـ الى اواخر القرن الاول قبل الميلاد ، يوم غزا الرومان الجزيرة العربية عن طريق مصر ، واخفقوا في حملتهم تلك ، كما ان اليقظة العربية الحديثة بدأت منذ غزا نابليون مصر .

بيد ان جورج انطونيوس لم يكن الف كتابه يتتبع الجذور ، ولا كان معنيا بالتحليل ، وانما صرف كل همه واهتمامه الى عرض الوقائع التاريخية وتعزيز هذاك العرض بالوثائق والمستندات ثم انه اقتصر حتى في سرده التاريخي على فترة من الزمن لا تتجاوز ثلاثة ارباع القرن ، اذ يقف عند سنة ١٩٣٦ ، وما كانت الدراسات القومية حتى ذلك الحين على ما هي عليه اليوم من سعة وعمق ، ولا كانت الحفريات والآثار التي كشفت لتلقي الضوء الذي القته من بعد على التاريخ العربي برمته . واقتصر كذلك على الشطر الشرقي من دنيا العروبة او الاسيوي ، وهما شطران لا ينفصلان تاريخيا وان صح التفريق بينهما جغرافيا في التسمية او الواقع المكاني ، فان افريقيا اخذت اسمها من احد تبابعة اليمن في الاعصر القديمة ، وهو ، افريقس ، وقرطاجة (تونس) كانت خلقة في سلسلة المدن الفينيقية ، والحاميون امتزجوا بالساميين منذ اقدم العصور ، فالاقتصار على « التاريخ للفكرة العربية الحديثة في شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب » يتنافى مع واقع القومية العربية وجذورها ولا يعطي صورة شاملة كاملة عن التيارات القومية التي اخذت تعصف بالعالم العربي منذ بدأ يحتك احتكاكا سياسيا وعسكريا بدول اوروبا القومية ، فقد رأينا الامير عبد القادر الجزائري ينتهي بعد اخفاق ثورته ، في دمشق ، ورأينا مصر منذ غزاها نابليون الى اليوم وهي تؤثر تأثيرا مباشرا في مصائر عرب المشرق وتتأثر بهم ، ناهيك عن تاريخها القديم الذي لم يكن في صلب الموضوع الذي قصد المؤلف الى بحثه .

ولكن الدكتور نبيه فارس الذي وضع مقدمة الترجمة العربية حاول أن يقوم بعرض تاريخي أيضا يتمم البحث في اليقظة العربية بادئا منذ عام ١٩٣٦ ، أي حيث انتهى انطونيوس ، وواقفا عند الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، واضاف « وادي النيل » الى الهلال الخصيب وشبه الجزيرة العربية ، في درس الحركة العربية .

ولقد كانت بريطانيا الحريصة كل الحرص ، منذ اصبحت ذات مصالح في الشرق العربي ، على فصل افريقيا العربية عن آسيا العربية ، ولا يبعد أن يكون المؤلف متأثرا بهذا الاتجاه في الفصل بين شطري العالم العربي ، اذ نجده في كثير من المواقف يدفع بعض التهم عن بريطانيا : « وكثيرا ما تتهم بريطانيا في الدوائر العربية بأنها بعد أن استغلت العرب لتحقيق غايتها تحولت عامدة ضدهم حين حققت النصر . غير أن هذه التهمة في حاجة الى جلاء . لقد كان في صفوف الحكومة وفي خارجها رجال أحسوا أن عليهم دينا ، وكانوا يتشوقون الى أن يروه مقضيا بشرف » (ص ٤٢٤) . ويقول في مقام آخر ، دفاعا عن لويد جورج : « ويدل موقف المستر لويد جورج في ذلك الاجتماع (السري الذي عقده الاربعة الكبار في آذار عام ١٩١٩) على أن الحكومة البريطانية كانت تعترف بعدالة حق العرب في الإستقلال في سوريا وأنها منحته تأييدها الكامل في مؤتمر الصلح ، وهذا يبعد التهمة التي تقول : ان بريطانيا العظمى لم تبذل جهدا لتنجز وعودها للعرب ، خارج الجزيرة العربية » (ص ٤٢٧) .

هذه المواقف التي يقفها المؤلف عند سرد الوقائع وذكر الوثائق ، تلقي النور على تأثره أو أخذه ـ الى حد ـ بوجهات النظر البريطانية في فهم التاريخ العربي الحديث ، وأعني هذه الوجهات التي يبثها أنصار بريطانيا ودعاتها في الشرق العربي ، تضليلا للرأي العام فيه ، لا التي يعرفها المسؤولون البريطانيون وغيرهم ممن اشتركوا في توجيه الحوادث ، وكانوا على علاقة وثيقة بمجراها . فأيا كان الجلاء الذي يقدمه انطونيوس للتهمة القائلة بأن بريطانيا خدعت العرب ، وتحولت ضدهم بعد أن ربحت الحرب ، تظل سيرة بريطانيا أجلى من كل بيان ، فهي لا تهتم الا بما لها من مصالح في هذه البلاد العربية ، واذا تحققت هذه المصالح عن طريق معاداة العرب سلكت ذلك الطريق وتحالفت مع أعدائهم . وهذا هو شأنها بالامس واليوم وهو ما سيكون شأنها غدا .

وأما دفاع انطونيوس عن لويد جورج فينفيه موقف الملك حسين منه ونقمته عليه التي أوضحها انطونيوس نفسه في الكتاب ، وأشار اليها بالتفصيل عند الحديث عن نهاية ملك الحجاز في عمان . وقد كشف النائب العمالي اليهودي ر.هـ.س. كروسمان المعروف موقف لويد جورج في محاضرة القاها في مستعمرة « رحبوت » عام ١٩٦٠ حول زعيم الصهيونية ويزمن في ذلك الوقت ، ونشرتها مجلة « انكاونتر » في

(*) « يقظة العرب » تأليف جورج انطونيوس ، ترجمة الدكتورين ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، ٦٥٣ ص ـ نشر دار العلم للملايين بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين ـ بيروت ١٩٦٢ .

عددها رقم ٨١ عن حزيران . قال فيها : « ما هي الدوافع التي حملت الحكومة البريطانية على اصدار وعد بلفور ؟ » ثم يعرض مختلف الشروح والتفسيرات ، ويذكر في جملة ما يذكر أن ويزمن نفسه قرر أن لويد جورج كان « المحرك الاول » على ذلك الوعد ، وأنه انما أصدره مكافأة منه لويزمن على الخدمات التي أداها لمجهود بريطانيا في الحرب ، وينهي كروسمان عرضه بهذه العبارة : « لقد انتهيت الى الاستنتاج ان أوضح تفسير ـ كما هو الشأن غالبا في السياسة ـ هو أقرب ما يكون الى الحقيقة . ولاسباب تتباين بعض الشيء شعر كل من بلفور ولويد جورج وملنر انهم ملزمون بعمل شيء « تجاه اليهود المضطهدين ... » . وأيا كان التفسير فان لويد جورج يتحمل في جميع الاحوال ، تبعة كبرى ، ان لم تكن أكبر التبعات في تأييد الحركة الصهيونية وايصالها الى أهدافها الاجرامية . ونجد أنطونيوس مع ذلك يقول ما قاله في بشأن لويد جورج وموقف الحكومة البريطانية !

ويقع أنطونيوس في الخطأ نفسه ـ أي الاخذ بوجهة النظر البريطانية ـ حتى عند تفسير بعض الاحداث التاريخية ، فهو يقرر مثلا أن انتشار العنصر العربي انحصر في مجال أضيق من المجال الذي انتشرت به اللغة العربية « فمن بين البلاد المتاخمة لحدود شبه الجزيرة العربية استوعب القسمان المعروفان اليوم باسم فلسطين وشرق الاردن أكبر نسبة من العنصر العربي ، وكان حظ بلاد الشام والعراق دون ذلك ، وحظ مصر أقل منها » .

ان من يقرأ هذا الكلام يحسب أن عروبة هذه البلاد موضع شك من الناحية العنصرية ، وأن تعريبها حادث طارىء عليها ، وأنه طرأ بعد انتشار الحركة الاسلامية ، وواقع الامر أن الشام والعراق وفلسطين وشرق الاردن كانت عربية قبل الاسلام ، والموجات التي توالت عليها من الجزيرة العربية تضرب في أبعاد الماضي السحيق ، وكذلك هو الشأن في مصر وسائر شمال أفريقيا ، وانحسار اللغة العربية عن الاندلس وصقلية كانحسار العنصر العربي عنهما ، نتيجة عدم وجود جذور لهما في ذينك البلدين ، ولكن صمود العروبة في شمال أفريقيا ، رغم كل ما لقيت من عوامل الابادة والضغط ، يؤيد اصالة العنصر العربي فيها ، وعمق جذوره في تربتها . ولم يكن الاسلام سوى عامل « مساعد » على ترسيخ الجذور التي سبقته في الوجود ، ولدينا في التاريخ الراهن ظاهرة واضحة الدلالة ، وهو أن مصر لم تظهر بوجهها العربي الاصيل ـ والحقيقي من جهة ثانية ـ الا بعد أن تحررت من القيود الاجنبية ، وخلصت من حكم الاجانب لها ، والانسان كالشعب لا يظهر على حقيقته الا بعد أن يصبح حرا . وما يقال في مصر ، يقال في ليبيا وتونس والجزائر والمغرب والسودان ... ولم يكن من مصلحة الحكم الاجنبي ـ عهد وضع أنطونيوس كتابه ـ الا أن يخلق مثل ذلك الجو الفكري الذي يستهدف ايجاد التفرقة بين شتى الاقطار العربية ويشكك أبناءها في أصولهم واتجاهاتهم القومية .

على أن هذا التشكيك ، وتلك التفرقة أخذا سبيلهما الى هذه البلاد ، الى العالم العربي برمته ، منذ أخذت البعثات التبشيرية تفد عليه ، اذ كان هم هذه البعثات ـ ولا يزال ـ منحصرا في تأييد اتجاهات سياسية معينة ، ولكن من خلال المواعظ الدينية والتبشير بمبادىء ومذاهب معينة ، وهذا ما أوضحه المؤرخ الهندي بانيكار في كتابه « آسيا والسيطرة الغربية » كما جلاه الدكتوران : مصطفى خالدي وعمر فروخ في سفرهما المعروف : « التبشير والاستعمار » . واذا أنت رجعت اليوم الى الدراسات التاريخية والادبية والفكرية التي وضعها بعض أقطاب التبشير مثل الاب لا منس ولويس شيخو ، رأيت فيها توجيها سياسيا ـ لا دينيا ـ معينا ، وأدركت أن الاهداف لم تكن تقتصر على نشر المبادىء الدينية خالصة لوجه الايمان والعقيدة . ومع ذلك نجد جورج أنطونيوس يقرر في كتابه هذا أن تسامح ابراهيم باشا « فتح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية ، وبذلك أتاح مجال العمل لقوتين : احداهما فرنسية والاخرى امريكية ، قدر لهما أن تحضنا البعث العربي وترعياه » .

صحيح أن البعثات التبشيرية أسهمت الى حد بعيد في نشر الثقافة الحديثة ، وفتحت الاذهان في هذه البلاد على العصر وما يدور فيه من شؤون الفكر والعلم والادب ، وأيقظت كثيرا من الهمم في نبش كنوز الماضي وكشف ما تخبأ منها أو دفن ، ولكن القول بأنها « حضنت البعث العربي ورعته » ينطوي على كثير من الغلو في تقدير أثرها أو نياتها . ودليلنا على « الغلو » في هذا التقدير ما أفضى اليه التبشير في فلسطين ، والمواقف الاخيرة التي وقفتها البلاد الغربية التي تصدر المبشرين ، من قضايا التحرر في البلاد العربية . واذا جاز لنا أن نفصل بين المواقف السياسية والبعثات التبشيرية ، كما يريدنا المبشرون أنفسهم على أن نفعل ، فان من المؤكد الذي لا يرقى اليه ريب ، أن هذه البعثات كانت تلاقي في مستهل قدومها الى الاقطار العربية ، كل عون وتأييد من ساسة بلادها . وهذا وحده كاف لان يبين مدى ما في كلام أنطونيوس من غلو ـ وهو يعرض أحداث الماضي ـ عن « رعاية » البعث العربي من قبل البعثات التبشيرية !

ذلك هو المأخذ الاساسي العام الذي يصح أن نأخذه على انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » . وهو مأخذ ـ أي التأثر بوجهات النظر البريطانية في فهم الاحداث وعرض التاريخ ـ ينبت في الكتاب على نحو خفي ، ولا يسطع سطوعا ، ولكنه يتضح لمن يتتبعه ويؤكد نفسه في معظم الخطوط الكبرى للكتاب ، وان ظهر في بعض التفاصيل ما يناقضه (الحديث عن فلسطين في خاتمة الكتاب)

غير أن الكتاب يظل مع ذلك ، يتمتع بقيمة نادرة في موضوعه ، ولا سيما من الناحية التاريخية فقد عني المؤلف بجمع الوثائق ، واتصل بعدد من الشخصيات الذين أسهموا في الاحداث خلال فترة ما بين الحربين ، وسرد من الوقائع ما لا يجده الباحث في غيره من كتب التاريخ المتداولة .

وكان أفضل ما أعجبني فيه حسن تبويبه ، فالكتاب يحوي ستة عشر فصلا تتسلسل فيما بينها وتترابط على نحو يكاد يكون روائيا ،

شعر
من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب
بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

وهذه لائحة بها : ١ ـ تمهيد : الموقع الجغرافي ، وتحديد العالم العربي . ٢ ـ حركة محمد علي في مصر وأحداث الجزيرة العربيـة (الوهابية) ٣ ـ التبشير في البلاد العربية والنهضة الثقافية . ٤ ـ الاستبـداد الحميدي . ٥ ـ الحركة العربية الوليدة : ١٨٦٨ ـ ١٩٠٨ . ٦ ـ الشبان العرب والشبان الاتراك . ٧ ـ الحرب والجهاد ١٩١٤ . ٨ ـ الخطـة : ١٩١٥ . ٩ ـ عهد بريطانيا العظمى : ١٩١٥ . ١٠ ـ الثـورة ١٩١٦ . ١١ ـ نتائج فورية (للثورة) . ١٢ ـ العرب في الحرب . ١٣ ـ عهود ونقيضاتها . ١٤ ـ تسويات تمت بعد الحرب . ١٥ ـ الجزيرة العربية بعد الحرب . ١٦ ـ العراق وسوريا وفلسطين بعد الحرب .

ويحتوي الكتاب أيضا ثمانية ملاحق على جانب كبير من الاهميـة ، لكل من يريد اعادة النظر في تاريخ العرب قبل الحرب الاولى بقليـل وبعدها ، من مراسلات مكماهون الى اتفاق سايكس ـ بيكو ، الى اتفاقية فيصل ـ ويزمن ، الى توصيات لجنة كنغ ـ كراين ، الى غيرهـا ... وكلها وثائق يمكن من خلالها تحديد التبعات ، والقاء ضوء على ما جرى من بعدهـا .

ويبدو لي أن الحركة الصهيونية وما ساندها من حركات استعمارية في تلاتينيات هذا القرن وأربعينياته ، استطاعت أن تفيد من هذا الكتاب ـ وهو الذي وضع بالانكليزية ـ في توجيه سيرها نحو أهدافها ، ووضع خططها المقبلة انطلاقا من بعض النقاط التي عرضها المؤلف في الفصـل الاخير . فهو يدافع عن ثورة فلسطين عام ١٩٣٦ ، بهذه العبارات :

« لا يرجى لقضية فلسطين حل دائم الا حتى يزال الظلم . أمـا العنف سواء كان ماديا أو معنويا فانه لا يكفل حلا . وهو في ذاته يستثير اللوم ، كما يجعل التفاهم بين العرب والبريطانيين واليهود أصعب تحققا على مر الايام . نعم ان العرب حين لجأوا اليه قد لفتوا الى مظالمـهم انتباها جديا ، وهذا أمر عجزت عن أن تحققه لهم جهودهم السلمية في القدس ولندن وجنيف على مدى عشرين عاما . الا ان العنف يعدو طوره، ويحطم غاياته نفسها ، والضرر الذي لا ينفك عنه ، ينقص من قيمة الارباح العاجلة التي يكسبها ، ولن يتولد الا الضرر عن الارهاب الذي يكتسـح اليوم فلسطين الا أن الطريق السديد لانهائه هو ازالة الاسباب التـي أوجدته . تلك حقيقة لا بد من مواجهتها وهي أن عنف العرب نتيجـة حتمية للعنف المعنوي الذي أخذوا به ، ولن يكف عنفهم ، مهما تتـذرع الدولة بوحشية القمع والاذلال ، الا اذا كف العنف المعنوي نفسه ! »

هذا الكلام يبدو لنا اليوم أفلاطونيا بعد أن جرى ما جرى فـي فلسطين ، او ان فيه تأثرا : بالجو الفكري الذي حمله غاندي الى فضاء ذلك الجيل ، وأشبع به آفاق السياسة الدولية ، وقـد استطاعـت مكيافيلية الصهاينة والاستعماريين أن تستغل يومذاك جميع ما في العالم من أفكار لبلوغ مآربها ...

ولكن الظاهر من كلام أنطونيوس أنه كان يواجه أحداث جيله بـروح خاصة ، هي الى التسامي الفكري أقرب ، فهو يتحدث ، وفي قضايـا سياسية على جانب كبير من الخطورة ، كمـن ينصح او يعظ ، مـن « استثارة اللوم » الى « التفاهم » بين العرب والبريطانيين واليهود، الى « ضرر العنف » .

وهذه المحاولة في التسامي تمنع المؤلف ـ فيما أرى ـ من التقاط الدوافع والحوافز الكامنة وراء التيارات السياسية ، ولاسيما فـي الحقبة التي أرخها .

المهم أنك تجد في هذا الكتاب ما لا تجده في غيره من الكتب التـي تناولت التاريخ السياسي في الشرق العربي ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدهـا .

وأراني في غنى عن الاشادة ببيان الدكتورين : الاسد وعباس ـ وهما اللذان ترجما الكتاب ـ فهما من المجلين في هذه الحلبة ، ولهما فيهـا اكثر من سبق ، كما أن لهما فضلا في اغناء المكتبة العربية بما سبق أن ألفا وترجما وحققا من كتب ...

عبد اللطيف شراره

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعـة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتـر
تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانـا

تأليف فديريكو غارسيا لوركا
ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تأليف مرغريت دورا
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تأليف لويجـي بيراندلـلو
ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبـة

تأليف جان بول سارتر
ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت